المظاهر الثّقافية والحضاريّة لفجر التّاريخ في المغرب

د./ رميلي مصطفى
قسم التاريخ– جامعة الجزائر2
remili.mustapha@univ-alger2.dz

الملخص:

تتضمّن المداخلة مجموعة من معارف عن علم آثار فجر التاريخ التي تنحصر في عدد من المعطيات الثقافية والحضارية، مستقاة من بقايا مخلفات مادية، وهي تتمثّل في أثار المسكن وهياكل الدفن، وفضاءات تركت لنا أدلّة دامغة، توحي بممارسة الزراعة في تلك المرحلة، التي قامت على نظام استغلال مدرجات سفوح الجبال. كما قدم لنا الفخار الجنائزي المستخرج من القبور، معلومات جد مهمة عن النمط المعيشي للبربر القدامى، وحتى الحلي المتنوعة من ناحية المادة والشّكل، التي عُثر عليها داخل المباني الجنائزية، أطلعتنا بصورة دقيقة عن المستوى الفني الذي كان سائدا أنداك عند سكان المغرب. كما لعب الحصان دورا مهما في الحياة اليومية، إذ أصبح عنصرا أساسيا، مُثل في مشاهد شتى في الفن الصخري بمنطقة الأطلس الصحراوي والصحراء الوسطى، تارة يجرُ عربة نقل وتارة في مشهد صيد وأخرى في مشهد حرب، التي تعود إلى 1200 سنة قبل الميلاد.

الكلمات المفتاحية: البربر القدامى؛ فجر التاريخ؛ ثقافة؛ مسكن فجر التاريخ؛ الفخار؛ الفن الجداري.

Résumé:

Grâce à l'archéologie protohistorique du Maghreb, nous possédons aujourd'hui un ensemble de connaissances, tout a fait plausibles, qui peut, nous renseigner d'une façon cohérente sur la vie culturelle et civilisationnelle des anciens «Berbères» pendant cette période charnière de l'Histoire, qui est «la Protohistoire». Ceci dit, les restes des inhumations funéraires et cultuelles, et les traces de culture à étages qu'on retrouve dispersées sur les versants montagneux, nous donnent une image précieuse sur le mode de vie de ces populations. Notre intérêt pour les parures, et leurs modes de fabrication, nous a permis d'avoir une idée précise sur les techniques de fabrications et leur degrés de stylisations, comme étant un model de développement culturel et civilisationnel. Les traces d'habitations nous font aussi découvrir le mode de vie de ces populations, sans oublier, la présence du cheval, datant de 1200 av. j. associé à la charrue, représenté dans les gravures et peintures de l'art pariétal de l'Atlas Saharien, et du Sahara centrale, comme élément de transport, de chasse, et de guerre dans la vie quotidienne des populations Berbères.

Mots clés: les anciens Berbères; la protohistoire; Culture; l'habitat protohistorique; poterie; l'art rupestre.

يفتقر علم آثار فجر التاريخ إلى المعطيات الدقيقة حول النمط المعيشي أو التنظيم الاجتماعي، وذلك راجع لنقص الوثائق المادية التي تخص هذه الفترة الهامة من تاريخ المغرب، غير أن المعلومات القليلة التي بحوزتنا تثبت وجود مجتمعات حضرية مستقرة خارج حدود الأرض البونيقية، التي كانت تعرف نوعا من التنظيم الاجتماعي وتختلف في الطقوس الجنائزية دون توحد حضاري وثقافي.

إنّ السؤال الذي يطرحه علماء الآثار المختصين في فجر التاريخ، يتمحور حول إمكانية تعميق معارفنا عن المجتمعات القديمة التي عاشت قبل مرحلة ماسينسا خلال فجر التاريخ، لكن علم الآثار الخاص بـ "فجر التاريخ" في المغرب، للأسف يعتمد سوى على مصدر واحد من المعارف، ممثلة في حفريات المباني الجنائزية (Camps G. 1960, p.93)، وأنّ كلّ الاستدلالات النّاجمة عن هذه الحفريات تقوم على إفتراض ضعيف نوعا ما، مضمونه أنّ المباني والأثاث والطقوس الجنائزية، تعكس بصورة وفية عن حياة مجتمعات فجر التاريخ.

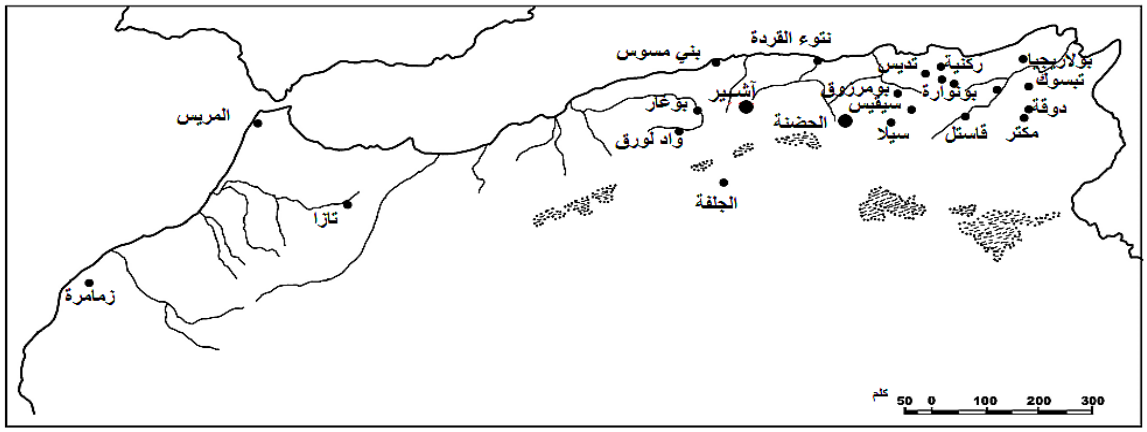

البربر القدامى:

لم تجر أية دراسة أنثروبولوجية شاملة حول مجتمعات العصر الحجري الحديث وفجر التاريخ إلى يومنا هذا، بإستثناء أبحاث م. ك.شاملا التي أجرتها على بقايا عظام بشرية تعود إلى العصر الحجري الحديث وفجر التاريخ في المنطقة الصحراوية والمناطق المجاورة، التي أعطت بعض المعلومات حول نمط إنسان تلك المرحلة (Chamla M.C, 1968).

أما الدراسات التي تناولت مناطق أخرى فهي جزئية أتت بمعارف غير مكتملة. ومن بين تلك الدراسات، تلك التي فام بها ق. كامبس (1961)، إذ يرى أن تشكيل شعوب البربر في فجر التاريخ يعتبر من المشاكل التي لم تطرح بطريقة علمية، وهو ما نجم عنه جدال متناقض، ولا يزال غامضا رغم أنه أساسي.

ومند إنطلاق الأبحاث حاول بعض الشّغوفين بعلم الأنثربولوجيا أمثال فيدهرب وبرتران حل هذا المشكل، وقبلهم هيبمسال وسالوست 2000 سنة من قبل، كما درس الموضوع ابن خلدون، إلى جانب عدد

كبير من مؤرّخين، وعلماء أنثربولوجيا وفقه اللّغة الذين اهتموا بموضوع أصل البربر، لم يصلوا إلى نتائج مرضية، بل بالعكس كثيرا ما كانت التعريفات سطحية وغير موضوعية، ورغم ذلك عرفت رواجا كبيرا في الأوساط العلمية (Camps G. 1961, p.18).

ولحسن الحظ فإن علماء الأنثروبولوجيا، أتوا في الخمسينيات من القرن الماضي بمعطيات أكثر دقة تمحورت حول أصل البربر معتمدين في ذلك على علم ما قبل التاريخ وأدلته المادية. إذ استطاعت أبحاث ما قبل التاريخ التي ظهرت في السنوات الأخيرة، أن تعرفنا بإنسان "عين دكارة" وإنسان "عين مترشم" بحلزونيات قفصية، وتميزهما عن إنسان "مشتى العربي". هذا النوع البشري الجديد الذي يعرف بـ "البعد المتوسطي" عمر تدريجيا كل المغرب في حدود الألفية الثامنة ق.م. (Camps G. 1961, p.33). والأهم في ذلك، قد لاحظ ل. بالو (1955) انعدام انقطاع أنثربولوجي بين إنسان العصر الحجري الحديث وإنسان العصور التاريخية (Balout L.1955, p.35)، ففي حدود الألف 13 ق.م وجدت الحضارة الإبيرية–المغربية الممثلة من طرف إنسان مشتى العربي الذي يتميز بالقامة الطويلة (المعدل 1.72 م)، والرأس المستطيل، والجبهته المنخفضة والأطراف الطويلة، الذي يعتبر الآن هذا الإنسان، أول جنس يمثل الإنسان العاقل العاقل في المغرب، كما لوحظت علامات تشريحية تدل على تطوره نحو جمجمة عريضة ومتوسطة (mésobracycéphalie) في بعض المواقع مثل كولمناطة بتيارت (الغرب الجزائري).

وفي حدود 7000 سنة ق.م ظهر إنسان أخر، طويل القامة من الجنس المتوسطي له بعض الخصائص الزنجية، يسمى "بالإنسان القفصي"، حيث كان يعيش في حيّز غير محدّد بالضبط من المناطق الداخلية، وأنّه لم يصل إلى الجزء الغربي للمغرب أو الصحراء الجنوبية، وقد كان يتغذى بالحلزون، ويبدو حسب بعض العلماء أنّ حضارته (القفصية) قدمت من الشرق.

وعلى الرغم من أنّ جمجمة الإنسان القفصي شبيهة بجمجمة الإنسان الحالي، إلاّ أنّه يُعتقد أنّ بربر فجر التاريخ (Protoberbères) لم يظهروا إلاّ مع العصر الحجري الحديث، في حين أن الطقوس الجنائزية للقفصيين لم تستمر في العالم الليبي–البربري، وقد يمكن إعتبار إنسان المنطقة الشرقية للمغرب قريب من الإنسان القفصي. ومن الناحية العمرانية يبدو أن تاريخيا تعمير المغرب حدث بدون شك من إلتحام ثلاثة عناصر (إبيرومغربية وقفصية ونيوليتية) في شعوب الحديثة التي تعرف تحت مصطلح البربر، وهي التي أعطت الشعوب اليليبية البربرية كتشكيلة إثنية (Desanges J.1980,pp.454-455). ومن المعروف أنّ هناك نمطان مورفولوجيان على الأقل ضمن سكان المغرب بين الألف 13 و4 ق.م، وقد التقيا مع بعضهما البعض؛ الأول مرتبط بالصناعة الإبيرومغربية يدعى "مشتى أفالو" ذو خصائص نموذجية، والثاني غير معروف بشكل أكثر نظرا لقلة الدراسات التي تم إجراؤها على البقايا العظمية المستخرجة من الحلزونيات، وهو مرتبط بصناعة ذات طابع قفصي متطور. إلاّ أنّه أقل قدما من النمط الأوّل، عاش في المنطقة الشرقية من الجزائر وتونس. وأمّا عن مورفولوجيته فهي متجانسة، نحيف نوعا

ما عن إنسان أفالو، سحنته تقترب أكثر من النمط المتوسطي الذي وجدت بقاياه في عين مترشم جنوب تونس وفي حلزونية عين دكارة (رمادية) بتبسة.

وفي كلا النمطين لا نجد خصائص حقيقة للإنسان الزنجي الشكل، المتميز بنتوء حاد للفكين وأنف أفطس (Platyrhinien)، هاتان الخاصيتان وجدتا منعزلتين سواء عند إنسان أفالو–تافورالت (ذو الأنف الأفطس) أو عند إنسان الحلزونيات القفصية وإنسان عين الدكارة ذو الفكين البارزيين بحدّة (Chamla M.C, 1968, p.87).

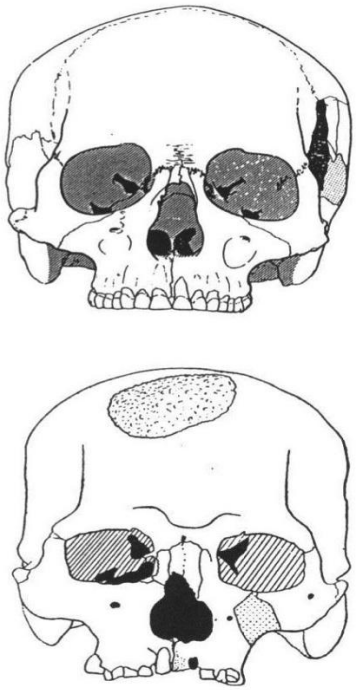

الإبيري – مغربي أفالو بو ريمال ببجاية
الإنسان القفصي: عين دوكارا بتبسة

اللّيبيون في النّصوص القديمة:

أصبح من الضروري استغلال الوثائق الصورية والمكتوبة لتعريف بالليبيين، والتي تشير إلى وجود مجتمع ليبي في التاريخ القديم للبربر القدامى، إذ نعتبرها اليوم جانبا مهما في توثيق المادة الأنثروبولوجية، التي ساهمت في إبراز العنصر البشري في المغرب مند القديم، وهي معلومات مأخوذة من مصادر تاريخ ليبيا في الألف الثانية (كتابات أو رسومات) خاصة المصادر المصرية التي تتحدث عن العلاقات التي كانت قائمة بين الليبيين والمصريين، هذه الوثائق تذكر الليبيين تحت اسم "تحنو" (Tehenou). وحسب هولشر، فالاسم ظهر على قطعة من الشيست للملك "عقرب"، ثم وجد نفس الاسم على قطعة من العاج اسطوانية الشكل لـ"هيراكونبوليس" تحت حكم "نارمر" في بداية الألف الثالثة، إذ ورد في الوثيقة غنائم

وأسرى من الليبيين لفرعون بعد هزيمتهم أمامه. كما أن هناك نقيشة معبد جنائزي "شاحوري" للأسرة الفرعونية الخامسة، التي تعطينا معلومات عن هيئة ولباس التحنو. فهم من ذوي القامة الطويلة والشفاه الغليظة واللّحية المظفورة والتسريحة الكثيفة، ويرتدون أحزمة عريضة تحفوا الكتفين، ومتقاطعة على مستوى الصدر، متزينون بعقود من أقراط. وهم من عمروا الصحراء الليبية والواحات خلال الآلف الثالثة قبل الميلاد.

في حدود 2500 سنة ق.م تحت حكم الأسرة السادسة، لقد ورد ذكر "التحنو" ذو البشرة الفاتحة اللون والعيون الزرقاء والشعر الأشقر، ويبدو أن وطنهم كان قريبا من بلاد نوبيا السفلى (Desanges J. 1980, p.461).

فقد أورد أ. موري مايلي: «... تحت حكم الأسرة الخامسة وضع الليبيون غرب الدلتا في خطر، فردّهم "ساحورا" وأخذ غنيمة كبيرة: 123400 ثور و223000 حمير، خراف، وماعز، من الحكام الليبيين ذوي الوشم والعقود المزركشة الألوان مذكورة كلها في نقيشات معبد الشمس وأصبح الليبيون مرتزقة مكافئين لدى فرعون» (Morel A., 1936, p.205).

ويذكر كذلك أ. موري (1936) في كتابه "تاريخ المشرق" أن خطر الليبيين وقبائل ماشواشا (Mashouasha) ما زال يهدد المصريين حتى في عقر ديارهم، وكانوا طالبين دوما بأراض قرب النيل، وفي نهاية عام 1189 ق.م قام الملك رمسيس الثالث بشن معركة ضدهم قرب مدينة منفيس حيث هزم جيشه قبائل الملك "ماشاشار" (Mashashar) إبن "كابور" (Kapour) بعد أن قضى على أكثر من 2000 فرد، منهم الملك نفسه، وأسر 2000 من بينهم الملك "كابور" (Morel A., 1936, pp.586-587)

المسكن في فجر التاريخ:

إنّ مسكن فجر التاريخ مجهول تقريبا ومن الصّعب تمييزه بين الآثار البربرية الريفية القديمة، فبعضها معاصرة للوجود الروماني، وأخرى أقدم من هذا التواجد بعدة قرون، وذلك بسبب انعدام وثائق كرنولوجية توضح ذلك. وهذا ما يسميه ق.كامبس "بالدوام البربري" ممّا يفسر أن التقنيات الأبسط في البناء التي تلائم سكان المناطق الريفية لم تتطور منذ عدّة قرون (Camps G., 1960, p.94).

وعليه، فالنتائج الضعيفة المتحصل عليها من حفريات المناطق الأهلة في الفترات البونية والسابقة لها على الرّغم من ندرة في البقايا العمرانية أدت بعلم الآثار إلى حصر الأبحاث في المقابر فقط، وممّا يلاحظ أنّ الدراسات والأبحاث المتعلقة بالسكن فجر التاريخ تكاد تكون منعدمة.

أثار بقايا المسكن في فجر التاريخ:

يبدو أن شعوب فجر التاريخ توفرت لهم مساكن متعددة، حسب الآثار المستقاة من بقايا سكناهم، ويمكن حصرها حسب الأنماط التالية:

- المغارات:

هناك دلائل مادية تؤكد استعمال المغارات كمساكن في عصور ما قبل التاريخ القديمة والحديثة، فقد شغل إنسان ما قبل التاريخ التجويفات الطبيعية أو محفورة في الطبقات الكلسية، وجهّزها عند الحاجة بجدران مبنية بالحجارة. فهي أحيانا مساكن تحت الأرض وأحيانا أخرى غرف مهيأة فوق سطح الأرض تتقدمها حواجز عمودية أو مائلة، طبيعية أو مهيأة.

أحيانا تنتشر المخابئ الطبيعية وغير الطبيعية على حواف الشعاب أو النتوءات ذات القمم، وقد استعملت كملاجئ كتلك التي وجدت بمطماطة بوادي فوارة منطقة الحمامات (تونس) حيث أشار الدكتور "دايرول" إلى مغارة تسبقها هضبة، بها أثار العصر الحجري الحديث.

من جهة أخرى، يذكر المؤرّخون القدامى الشعوب التي كانت تسكن الكهوف ببلاد البربر، ويشيرون إلى بعض القبائل التي كانت لا تزال تسكن بمغارات في منطقة طرابلس حتى العصور التاريخية (Gsell St., 1915, p. 155).

وبالتّالي، فإنّه من الممكن أن تزيل حفريات المغارات بعض الغموض على فترات فجر التاريخ، على أن يبقى الإشكال الوحيد الذي يطرح بالنسبة لدراسة هذا النمط من المسكن، هو اختلاط الطبقات العليا التي من المحتمل أنّها تحتوي على بقايا آثار فجر التاريخ، فالمخلفات الأحدث وخاصة البقايا الفخارية التي أدخلت في محيط أثري عن طريق تسوية الموقع من طرف الرعاة الدين شغلوا هذه المواقع خاصة في فصل الشتاء، إذ يصعب تمييزها عن الوثائق الأقدم ما دامت تقنيات صناعة الفخار المستعملة في عصور فجر التاريخ تواصلت إلى يومنا هذا في الحرف التقليدية الريفية بالمغرب.

- الأكواخ:

لقد ترك إنسان ما قبل التاريخ في المغرب آثارا عديدة لأكواخ مستديرة الشكل، تعود إلى العصر الحجري الحديث وحتى إلى العصر الحجري القديم المتأخر، الممثل في الحضارة القفصية، بموقع ماجز2 (Camps Fabrer H., 1968, p.484)، ومن المحتمل أن يكون نمط العيش في الأكواخ أو الخيام قد تواصل إلى مرحلة فجر التاريخ.

لقد كان البربر القدامى يسكنون نوعا من الأكواخ المنقولة، المركبة على عجلات–يسميها المؤرخون بـ "المباليا"– (Mapalia) حتى يتمكنوا من التنقل بسهولة، دوما بحثا عن الكلأ.

لم يعثر على آثار هذا النمط من المسكن، إذ لم يترك لنا بقاياه، ولم تجر عليه أية دراسة أثرية. فبعض الباحثين يرون أنه من السهل العثور على مساكن ريفية مجمعة في شكل قرى أو منعزلة، لكن من الصعوبة العثور على آثار الأكواخ.

ورغم ذلك أظهرت حفريات ر. ثوفنوا و م. فيكار بمنطقة فاس الباعلي (جنوب المغرب الأقصى) آثار استعمال كوخ يعود ربما إلى فترة فجر التاريخ، تظهر هذه الآثار على شكل حيز نصف دائري محفور في الأرض على عمق 0.75م. أمّا الطبقة العليا فمن الأرجح أن تكون قد بنيت بالتراب المدكوك،

لقد تم العثور بهذا الحيز على حلي برونزية مرصعة بالفضة عبارة عن حلق أذن، خاتم وسوار لا تتشابه مع الحلي التي توجد عادة بالمدافن الميغالتية، هذا إلى جانب شقف فخار مصنوع بالدولاب (Thouvernot R. et Vicaire M., 1938, pp.367-376).

كما يشير س. قزال (1929) في الفصل الخاص بالمسكن عند الليبين القدامى، أن اللاتيين كانوا يستعملون مصطلحان خاصان وذلك للإشارة إلى الكوخ أو الخيمة التي سكنها الأهالي وهما: «الماباليا» (mapalia, magalia) أو«التوقوريا» (tuguria). وفيما يتعلق بالمصطلح الأول "الماباليا" يذهب س. قزال إلى اعتباره كلمة بربرية قديمة أو ليبية، لأنه في النصوص اللاتينية لا تظهر هذه الكلمة إلا مع المرحلة الإمبراطورية السفلى وتطلق على المسكن في المغرب (Gsell St., 1929, T. V, pp.219-220).

هذا النوع من المسكن يتمتّع بخصائص معينة واللاتينيون يطلقونها على المساكن الثابتة للسكان الحضريين وعلى المساكن المتنقلة للرحالة في نفس الوقت. والنوعان يتميزان ببعض الاختلافات في طبيعة التلبيس الخارجي المتكون من أوراق وأغصان وأعشاب الديس أو جريد النخيل أو القصب أو الحلفة أو التّبن مستعملة في حالة خام أم في شكل حصائر نباتية مضفورة كما تستعمل أيضا جلود الحيوانات المجففة.

أساسا «المباليا» عبارة عن كوخ يمكن نقله بسهولة عند الترحال ويضيف س. قزال أنه وجد نوع من المباليا الثابت مبني بجدران من الحجارة على منوال الكوخ العصري المعروف باسم «نوالة» (Nuala) بالمغرب يتميز بسقف من القش المخروطي الشكل موضوع فوق جدار دائرية من الحجارة المبنية أم المرصوفة (Gsell St., 1929, p.220). كما توجد بعض المعلومات غير كافية عن شكل المباليا من خلال ما تركه لنا المؤرخون القدامى حيث يظهر في شكل يشبه الفرن أو الخم الدائري وشكل أخر يظهر كزورق مقلوب (Marcy G., 1942, p.25).

- الملاجـئ:

لقد تعرف أ. رولمان على تهييئات من نوع النتوءات الحاجزة (caps barrés) "بواد بث" بالمغرب وأرخها بالعصر الحجري الحديث نظرا لوقوعها قرب محطات من الفؤوس المصقولة، ورغم أن الشكل المتطور لأغلبية تلك الفؤوس يقترب من الشالكولتي (Chalcolithique) أو حتى من مرحلة أحدث. والأبحاث التي أجراها ج. ماريون على حواجز منطقة وجدة تعرفنا أكثر بمواقع ومساكن البربر ولكن للأسف لم تتوج بتأريخات علمية بسبب إنعدام وثائق أثرية معبرة (Camps G.1961, pp.40-41).

- النّتوءات الصخرية الحاجزة (épron barrés):

هي عبارة عن مباني تحدد المواقع القديمة ومقابر فجر التاريخ أي أنها بقايا أثرية تنتمي إلى الأجهزة الدفاعية المعروفة تقريبا في كل المغرب. وتعبر عن أهمّية استقرار الإنسان في موقع ما، كما تظهر لنا آثار بناء مجهز بالحجارة يؤرخ سواء بنهاية عصور ما قبل التاريخ أم مرحلة فجر التاريخ.

وأحسن مثال نذكره هو موقع سوامة لمشرع الصفا غرب تيارت الذي يأوي ثلاثة مقابر تعود إلى فترات مختلفة (Camps G., 1961, p.591).

يتمتع هذا الموقع بميزات خاصة جعلت الإنسان يختار الإستقرار به أولا المخابئ الصخرية على حواف ضفة واد مينا حيث بقايا صناعات ما قبل التاريخ الموجودة به تبيّن إستقرار الإنسان خلال العصر الحجري القديم الأوسط و العصر الحجري القديم المتأخر تم شيد أسوارا متكئة على النتوء الصخري لتدعيم حماية الموقع من جهة الهضبة. يصل عرض النتوء الصخري في طرفه إلى 1.50م ويتزايد هذا العرض تدريجيا حتى يصل إلى 2.50 م ثم 5 م تقريبا ونجد داخل الموقع العناصر التالية:

- مقبرة على الضفة اليمنى لوادي مينا تأوي مدافن من نوع الدولمان والحثى والبازينات.
- مقبرة على الضفة اليسرى لزادي مينا على بعد 1500م باتّجاه أسفل النتوء.

وتوجد به حجارة نحتث فيها أحواض تتمركز خاصة قرب مجرى الواد على الضفة اليسرى واليمنى وهي ذات أشكال مختلفة استعملت تارة كعناصر لمعاصر الزيتون وكمدافن فردية في شكل سراديب مرتفعة تارة أخرى.

ولقد سكن الإنسان موقع مشرع الصفا آلاف السنين لتوفر عنصران أساسيان للإستقرار هما الأمن والماء، وبدون شك أن هذا الموقع أمن حماية طبيعية جذبت الإنسان الأول إليه، تم تواصل الاستقرار به إلى مراحل حديثة مدعما النتوء الصخري بتقنيات تحصين جديدة يشد يقوي السور الدفاعي كلما ازداد عدد السكان وكبرت المستوطنة (De Bayle R. et Calvet R., 1966, p.357-358).

هضبة نتوء حاجز برمادية مجز 2 بسطيف

– المسكن المبني بالحجارة الطبيعية:

فيما بعد شيّد المغاربة مساكن حقيقية إذ كثير ما نعثر في الشّرق والغرب الجزائري (قسنطينة، الأوراس، التل الوهراني) على أسوار مبنية بكتل حجرية ضخمة منحوتة قليلا، فوق ربوات أو هضاب

منحدرة تعلوا أنهار أو ينابيع، و من بين المساكن المتينة التي يمكن ذكرها تلك الموجودة بمنطقة الجلفة في واد الجلفة على الضفة اليسرى فوق ربوة بها أثار ملجأ قرب مدافن الدولمان المتوزعة في مقبرة مساحتها تقدر 500م^3 كما نجد في منطقة باتنة بالأوراس آثار قديمة لموقع "إيشوكان" فوق هضبة ضيقة يحدها أجراف من الجهات الثلاث، يستحيل العبور منها، أما الجهة الرابعة دعمت بسور ضخم مبني بكتل حجرية كبيرة، وداخل تلك الأسوار توجد أثار جدران مساكن وخارجها تمتد المدافن إذ تم إحصاء 300 مدفن (Gsell St., 1901, pp.15-16).

يذكر هبرودوت في القرن الخامس مساكن حقيقية يسكنها الليبيون المزارعون مبينة بالتراب أو الحجر، وأن بيوت الصحراء مبنية بكتل من الملح الممزوج بالتراب (Gsell St., 1929, p.224).

والبناء بالحجارة منتشر أكثر، إذ بقيت أثارها في العديد من المناطق بالمغرب عكس المساكن المبنية بمواد هشة التي لم تصمد أمام العوامل الطبيعية، لهذا نجد أثار مباني سكنية مبنية بالحجارة تعود إلى مراحل قديمة.

لقد استعمل الإنسان المغربي مواد صلبة للبناء كالحجارة للمباني الجنائزية كما نرى ذلك في المقابر القديمة، ممّا يدلّ أنّ نفس المواد استعملت لبناء السكن.

بقايا أساس بناية سكنية بموقع كاف لخضر – آشير المدية.
بمحاذاة مقبر تعود لفجر التاريخ تعود إلى حوالي 2700 ق.م
Structure d'habitat, technique appareillage berbère.

وتتوزّع الآثار البربرية (بقايا مساكن، حويطات، أسوار) على امتداد القرون ولكن عادة يصعب تأخيرها لتشابه مخططاتها وتقنيات بناءها عبر الزمن، فإذا نظرنا إلى قرية مهجورة منذ خمسين سنة نجدها تظهر مثل القرية التي تعود إلى الفترة الرومانية. وعادة ما تكون في المباني القديمة (والحديثة أيضا) أسس الجدران قليلة العمق (0,20 إلى 0,30) ولا يتم الحفر في الأرضية الداخلية للمبنى إلى ما تحت سطح الأرض ما عدى بعض الإستثناءات مثل مساكن منطقة زغوان التي تكون أرضيتها الداخلية محفورة على عم 0,50 م، فتكون الجدران واطئة لا تتأثر كثيرا بفعل الرياح، ويشيد أسفل الجدران بصفين من البلاطات المنتصبة وبينها حجارة صغيرة، وهذا ما يعرف بالتركيب البربرية رغم أنها معروفة في مناطق أخرى مثل جزيرة كريت ولكن لم تستعمل دائما البلاطات فأحيانا كانت تعوض بالحصى الكبير أو بكتل حجرية خام مقصبة بشكل خشن تتشكل منها قاعدة اللأسوار.

عرف المغرب (الجهة الشرقية) خلال المرحلة القديمة الكلاسيكية خاصة الرومانية انتشار التجمعات العمرانية، وجرت العادة أن تنسب هذه المدن إلى الحضارة الرّومانية؟

إذا رجعنا إلى فترات ما قبل التاريخ نلاحظ استقرار الإنسان خاصة في المنطقة الشرقية من المغرب وانتشار المباني الجنائزية خلال عصور فجر التاريخ تشهد على تلك التّجمعات الريفية الأولى التي نتجت عنها الحضارة الريفية المغربية (Camps G., 1961, pp.96-121).

وقبل تشييد روما شيد الفينيقيون والقرطاجيون عدة مدن وهناك معطيات توحي بالأصل الليبي لبعض المدن المغربية القديمة، إذ نلاحظ أن بعضها تحمل أسماء بربرية أو لوبية خاصة منها تلك الواقعة على الساحل، بينما نجد المدن ذات الأسماء اللاتينية المحضة تتمركز بصفة خاصة في الأراضي الداخلية حيث المراكز العسكرية، وعلى سبيل المثال منها كاستلوم نوفوم، وألا ميليريا، كما يمكم أن نشير بأن 80% من أسماء المدن التي تبدأ أسماؤها بدون "لام" (Lam) في الشمال الغربي للأوراس، المنطقة التي شاهدت ظهور ممكلة "الماسيل" أين شيد ضريح المدراسن، توحي بذلك وهذا ما يدعونا لتفكير في أن المدن الرومانية قامت على أنقاض مراكز نوميدية والكثير من المدن التي تعرف قبل فترة الإحتلال الروماني "كدوقا وماكتر وبولارجيا وسوا أزالي (Sua Usali) توجد على مداخلها القديمة مقابر ميقالتية، لوحظت فيها طقوس جنائزية تختلف تماما عن العادات اللاتينية أو الفينيقية. إذن لا يمكن أن تكون هذه المدافن إلا بربرية لسكان تلك المدن التي لا يشكّ في أصلها المحلي رغم تحوير أسمائها من طرف اللاتينيين (Camps G., 1974, pp.2-3).

الزراعة في مرحلة فجر التاريخ:

يبقى أصل الزراعة بالمغرب مشكلا لا يزال مطروحا إلى اليوم. فالمعطيات الأثرية حول فترة ما قبل التاريخ غير كافية للخروج باستنتاجات قطعية حول بداية الزراعة.

ف س. قزال (1921) استنتج أن المجتمع المغربي لم ينتظر قدوم البحارة السوريون لممارسة الرعي والزراعة (Gsell St., 1921, p.239)، ورغم تحليلات اللقاح التي عرفتنا بنبتات العصر الحجري الحديث،

إلاّ أنّ هذا لا يكفي للتحدث عن زراعة مغربية في تلك المرحلة. بينما من المؤكد وجود تدجين الحيوان وصناعة الفخار الذي تعرف عليه من خلال دراسة العينات الأثرية الملتقطة بالمواقع الأثرية والتمثيلات الفن الصّخري. إذ اتّضح أن أول الحيوانات المدجنة هي الثور والخروف والأول يملك خصائص محلية مؤكدة أكثر من الثاني.

أمّا في ما يتعلّق بالزراعة فيجب الاعتراف بانعدام شواهد قطعية حول ممارستها من خلال دراسة المواقع العصر الحجري الحديث. ولكن يفترض وجودها أكثر مع نهايته. والأدلّة الأثرية الوحيدة التي تعود إلى ما قبل التاريخ وتشهد على ممارسات زراعية خلال العصر الحجري الحديث وفجر التاريخ عبارة عن أدوات تعود إلى ما قبل الألف الرابعة ق.م. كما كانت تمارس تقنيات القطف التي أدت بالإنسان تدريجيا إلى إكتشاف زراعة حقيقية، وهذا النوع من ما قبل الزراعة استمرّ إلى العصر الحجري الحديث (Camps G.1960,pp.57-58).

لقد ظنّ بعض العلماء من خلال بعض الأدوات وجود زراعة أولية منذ الحضارة القفصية أو بالأقل على نوع من تهيئة المحيط الطبيعي من طرف الانسان، غير أنّ استعمال هذه الأدوات كان محل مناقشات.

- الكريات الحجرية المثقوبة:

هي عبارة عن كريات، نادرا ما تكون إجاصية الشكل، وقد تكون لها عدّة استعمالات، وهي خفيفة جدا كثيرا ما تكون مصنوعة من الكلس اللّين، ولا يمكن أن تكون قد استعملت كهراوة، وتبدو ثقيلة لتستعمل كقرط (المعلاقات)، لذا من أجل تحديد مجالات استعمالها اعتمد الباحثون في فرضياتهم على ملاحظات أجروها على المجتمعات البدائية.

وتطلق كلمة (Didding – Stick) على نوع من العصى طرفها العلوي مزود بكرية من الحجر تساعد على نفوذ رأسها أكثر في الأرض. هذا المعول البدائي معروف في إفريقيا ويستعمل لتهيئة الأرض لممارسة الزراعة المحدودة المساحة، ويستعمل أيضا لحفر الأرض بحثا عن الجذور أو الحشرات الغذائية عند المجتمعات التي بقت تمارس القطف.

ويستنتج ق.كامبس (1960) أنّه حتى إذا أخذنا بالفرضية التي تجعل هذه الكريات المثقوبة أوزان لأداة "Digging – Stick" فهذا لا يكفي للقول بوجود زراعة في المرحلة القفصية أو حتى في العصر الحجري الحديث ولا يمكن أن نتجاوز حد الافتراض (Camps G., 1960, p.61).

ليس من المؤكّد استعمال مثل هاته الكريات المثقوبة لزيادة في ثقل عصي الحفر، نظرا لأن معظم هذه الكريات خفيفة ولا فعالية لها، لذا يرى العديد من الباحثين أن هذه الكريات قد تكون نوع من دولاب المثقب يستعمل خاصة لصناعة خرز من قشور بيض النعام باستثناء الكريات التي يتجاوز وزنها 250غ فتلك قد تكون زودت عصى الحفر.

– المناجل (المعاول):

هي أداوات أقل انتشارا من الأولى وأحدث منها. تعتبر شاهدا عن وجود زراعة ما قبل تاريخية أو على الأقل تمثّل أداة زراعية بأتم معنى الكلمة.

أكتشف أول منجل بمغارة "بوليقون" بمنطة وهران بمستوى العصر الحجري الحديث وكما يظهر من الأوصاف لم يذكر أي من الباحثين (ف. دومرق، (1927)؛ أ. دوبروج، 1931–1930) بأنّ مثل هذه الأدوات تكون قد استعملت في زراعة ما (Doumergue F., 1927, p.205).

عرفت مناجل ما قبل التاريخ في المواقع الأوروبية وفي الشرق الأوسط، ووجد أكبر عدد منها في محطات العصر الحجري الحديث في الفيوم وواودي النطوف بفلسطين.

أما ق. كامبس (1960) فيرفض أن تكون هذه الأدوات مناجل ويقول أنّه حتى وإن كانت قد استعملت لقطع جذور الأعشاب – وهذا غير مؤكّد– فلا يدل على وجود زراعة قفصية.

في الحقيقة إن الشعوب التي تلتقط بذور البخيليات (graminées) تستعمل عادة تقنية أسرع من تلك التي تتبع في قطع الجذور أو جني الحبوب البرية بواسطة ضرب السنابل، وفي الهوقار مثلا لإلتقاط بذور (Drinn) يفرش رداء تحت النبتة التي تهز، ويمكن أيضا وضع النبتة المقطوفة في كيس كبير يضرب بالعصي (Camps G., 1960, p.65).

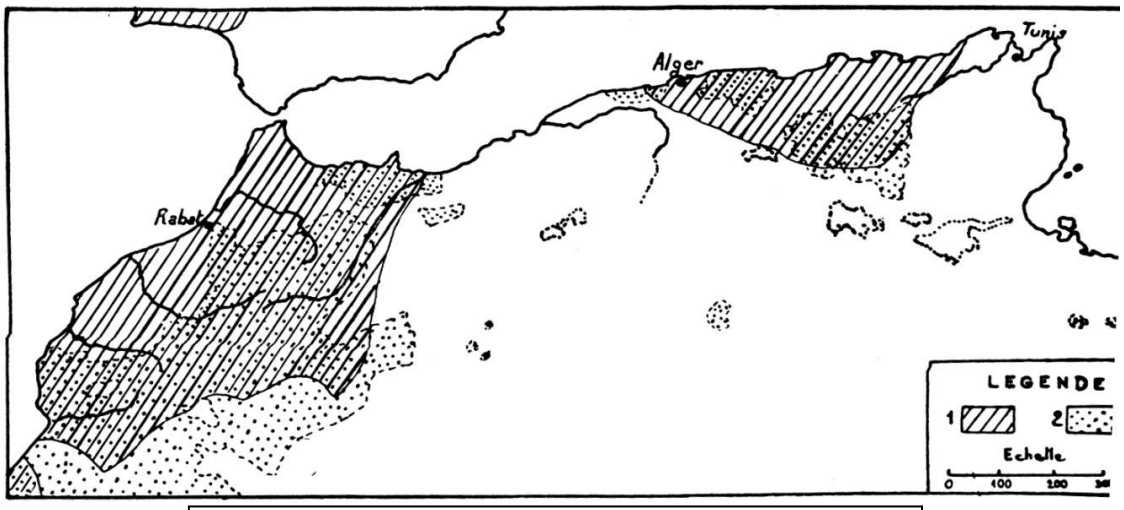

خريطة جغرافية تبيّن توزيع أداة المحراث البربري بالمغرب

- الرحى، البليطات والمناكش:

يمكن أن تكون الرحى المكتشفة في المواقع ما قبل تاريخية خاصة منها محطات العصر الحجري الحديث قد استعملت لسحق البذور ولو أن معظمها صغيرة لا تتوافق مع هذه الوظيفة، بينما رحى الصحراء أكبر وهي تعود عادة للعصر الحجري الحديث رغم أنها لا تزال تستعمل حتى يومنا هذا. لذا فإنّ هذه الأدوات لا يمكن أن تعتبر كأدلة كافية عن الزراعة ما قبل تاريخية.

والبذور التي تحوّل إلى طحين في الرحى لم تكن حتما لحبوب مزروعة. كما يشير إليه الدكتور قوجار (1937): «الرحى لا تعني حتما ممارسة الزراعة ولكن توحي إلى طحن البذور» (Gobert E.G., 1937, p.643).

- النّقوش والرّسوم الصّخرية:

نلاحظ في الفن الصخري للعصر الحجري الحديث ثراء في الأدلة القطعية حول تدجين الخروف والثور والكلب، ولكنّه فقير فيما يتعلق بالزّراعة، ففي الصحراء تظهر الرسوم الصخرية كثيرة العدد ومفصلة بالمقارنة مع تلك الموجودة بالشمال المغربي، فهي تصور لنا مشاهد من الحياة الرعوية لبقريات العصر الحجري الحديث، ورعاة البقريات لم يكتفوا بممارسة الرعي فقط إذا وجدت بعض المشاهد ذات دلالة زراعية في موقع "جبران – أمزار" حيث نجد رسم تمثيلي لأربعة أشخاص في مشهد تذرية حسب ما يراه "لابي بروي": «ثلاثة أشخاص يتميزون بالرشاقة وبرأس قرصي الشكل يضربون بقضبان مادة تخرج منها حبيبات مستديرة (الذرة البيضاء؟)، والشخص الرابع على اليمين يمشي ماسكا جسما لينا كرويا (إناء؟) وجاره يمسك بالطرف الآخر وفوقهما مستودع الحبوب بيضوي الشكل به ستة (6) جرّات موضوعة على شكل هلال تتناثر حولها الحبوب، وفي مكان آخر إمرأة شابة جالسة على ركبتيها تسحق الحبوب».

ويرى ق. كامبس (1960) أنّ الأدلّة الحقيقية لوجود الزراعة لا تكون إلاّ باكتشاف بذور نباتات مزروعة في المواقع ما قبل تاريخية، أمّا مشاهد تمثيلات التاسيلي فهي لا تعطي سوى مجرد فرضيات (Camps G., 1960, p.68).

- الرّسوم والنقوش لما بعد العصر الحجري الحديث:

يبدو أن الزراعة في المغرب بأدت تظهر حقيقة بين نهاية العصر الحجري الحديث والمرحلة البونقية، فقد أظهرت الأدلّة الأثرية أنّ المجتمعات القفصية والعصر الحجري الحديث كانت تمارس القطف ولم تؤكّد ممارستها للزراعة خلال هاتين المرحلتين، ولكن هناك شواهد أثرية أخرى تظهر ممارسة زراعية في مرحلة فجر التاريخ ليس لها أية علاقة بقرطاجة.

- نقوش الأطلس الكبير:

تعتبر النقوش الصخرية للأطلس الكبير بالمغرب اللأقصى وثائق دقيقة في ما يتعلق بتأويلها وتأريخها. فمجتمعات الأطلس الكبير كانت تقطن منطقة قاسية كما يلاحظ ذلك من خلال كثرة مشاهد

الحرب والمعارك، ولكن يوجد مشهد حرث منقوش في صخر "لعزيب نكيس" يمثل بقارتين متجهتان الواحدة نحو الأخرى والعريش الذي يمتد إلى قرون الثيران استعمل كمحور للتناظر، أمّا الفلاح الذي لم يبقى منه سوى الجدع والرأس فنراه ينحني فوق الآلة في الوضعية المألوفة للمزارعين.

عندما نشر ج. مالوم هذا التمثيل في سنة 1953 أشار إلى بعض الخطوط المنحنية لتمثيلة "الأوكايمدان" (جنوب مراكش) يمكن أن تفسر بمناجل (Malhomme J., 1953, pp.70-71).

ونقوش "الأوكايمدان" التي تمثل أدوات معدنية (الطبر المستطيل، الخنجر ذو البرشام...) ذات أصل يعود إلى فترة البرونز الوسطى الأوروبية وخاصة الإيبيرية والأطلنطية تمكننا تأريخ مشهد بعصر المعادن، وهكذا يمكننا القول: أنه لا شك في أن المعيشة الحضرية والزراعية إنطلقت عند البربر القدامى منذ عصر المعادن (Camps G., 1960, pp.70-71).

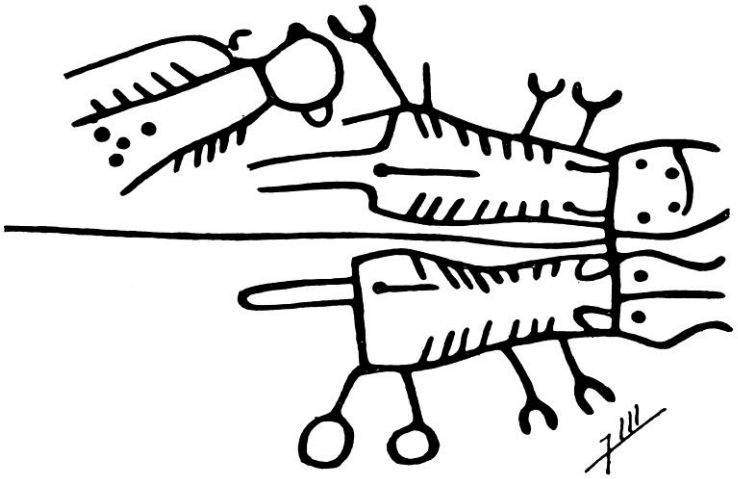

نقش صخري يمثل حرث الأرض بموقع "أعزيب نكيس" بالمغرب الأقصى يعود إلى عصر المعادن.

- التّهيئات الزّراعية لتازبنت (منطقة تبسة):

تركت الزراعة الفجر تاريخية أثار مادية، إذ أظهرت الصور الجوية شبكة من الخطوط الهندسية بقرية تازبنت التي تقع على بضعة كلومترات غرب مدينة تبسة، حيث يوجد بين عرف جبل بوزيان وهضاب شرية وهنشير، على سفح الجبل تربيع منتظم نوعا ما، إّذ يبلغ ضلع المربع من 20م إلى 50م، وهذا التربيع لا يتبع نفس النظام الهندسي الملاحظ في عملية تقسيم الأراضي، بحيث يتلاءم مع تبوغرافية الموقع تماما، وفي بعض المناطق تفصل مجموعات من المربعات بحيز ضيق يشبه الممرّ، وبعض المساحات محاطة بأسوار دائرية الشكل والبعض الأخر مستطيل. أمّا المظهر العام فيبدو كمدينة كبيرة منتظمة بطريقة بدائية ومعلقة بسفح الجبل، والمجالات المعينة بأسوار عبارة عن حقول لم تتعدى فيها الأسوار عادة سطح الأرض إلاّ ببضعة سنتمترات.

لقد أجرى "إ. سيري دو روك" بعض الأسبار لتأكيد من التجمع البشري في هذه المنشئات المكونة من جدران يتراوح عرضها ما بين 0.60 و0.80م وهي مبنية بصفائح كلسية تصل إلى الأسس الصخرية الواقعة تحت طبقة التراب الصالح للزراعة.

ليس هناك شك في أنّ مثل هذا التقسيم للأراضي كان يهدف إلى تحسين الظروف الزراعية فالسياجات الصغيرة جدا لا تصلح كحضيرة ماشية.

في أوّل الأمر أولت هذه التهيئات التربيعية إلى تجهيزات هيدرولية بدائية نظرا لكون المنطقة تعاني نوعا ما من الجفاف، فتكون تلك التجهيزات لحجز الماء وإبطاء سيلانه. وفي الحقيقة فإنّ تلك الأسوار أقيمت لحماية الأرض الزراعية وتحصينها، وقد لاحظ ل. بالو (1955) أن المنحدرات الصغيرة التي تحدد المساحات قد استعملت لحجز ثلوج الشتاء حتى تذوب ببطئ.

والتربة المحجوزة في تلك المربعات لا تزال تحرث من طرف سكان المنطقة حتى يومنا هذا، ولم يحدد تاريخها المطلق، ويرى ق. كامبس (1961) أن تربيعات تازينت ليست فريدة من نوعها إذ أشار ل. بالو إلى نفس التقسيمات بمصب واد خوريس جنوب جبل العنق (تبسة) كما لاحظ إ.سيري دو روك تقسيم آخر جنوب بئر العاتر يعود إلى ما قبل المرحلة الرومانية.

قام "باراديز" بدراسة عدة منجزات رومانية كانت تهدف إلى استصلاح الأراضي الجنوبية لمقاطعة نوميديا، وعندما واصل أبحاثه بالسهول القسنطينية العليا الممتدة من بوطالب إلى الحدود التونسية وجد نفس التهيئات على معظم كلّ السفوح المجاورة للقرايت (Garaet)، وحتى وضعيتها بالنسبة للمراكز والطرق الرومانية توحي بأنّ معظم هاته التهيئات معاصرة لها.

بينما نلاحظ في تازينت أن التنظيم الروماني يأتي فوق التربيعات المذكورة والمنشئات البربرية والرومانية تظهران مختلفان في تلك المنطقة الجبلية، لأن الرومان قد فضلوا تشييد السدود الصغيرة التي تقطع الانحدارات إلى خطوط طويلة متوازية عوضا عن التربيعات التي أنجزت من قبل (Camps G., 1960, pp.73-74).

مدرجات زراعية موقع تازينت بالأوراس– باتنة

إنّ تهيئات تازنبت توضح لنا أن الرومان قد وجدوا في المغرب نظام زراعي وهيدرولوجي متجانس تمّ الاستمرار في استغلاله مع ترتيبه في المناطق الجافة في نوميديا و ربما إفريقيا.
وتقنية بناء الجدران الصغيرة التي تحدد المساحات وجدت نتيجة المناخ شبه الجاف لمناطق إفريقيا وليس من المعقول أن ينتظروا قدوم الرومان للتفكير في مثل هذا التجهيزات.

ويرى ر. شوفالي في هذا الموضوع: «أنّ كلّ شيء يؤدّي بنا إلى إرجاع أصل هذه التّجهيزات الهيدرولية التي نظمها الرومان إلى السكان المحليين للمغرب، لقد ولدت في أرض إفريقيا».

ويؤكّد ق. كامبس (1961) الأصل المحلي لتهيئات "تازبنت" و"جبل تروبيا" و"تافرنت" نتيجة استقرار الإنسان لزمن طويل وبالتالي وجود معيشة حضرية بالمنطقة، لأنّ مثل هذا التنظيم لا يمكن أن يأتي بفعل إرادة إنسان واحد بل يفسّر في إطار اجتماعي واقتصادي خاص لا تزال تحتفظ به بعض المجتمعات البربرية في الأوراس والأطلس الكبير.

لقد جمع كلّ من إ. سيري دو روك و ل. بالو شظايا من الصوان ومعاول على سطح مربعات تازبنت ولكن للأسف لم يتمكنا من نسب هاته الصناعات الحجرية إلى مستوى معين للعصر الحجري الحديث ولا تأكيد معاصرتها للمنشئات الزراعية. ورغم خصائصها البدائية لا تنتمي هذه الصناعات المكتشفة إلى الحضارة القفصية حتى وإن كانت قد اكتشفت في منطقة غنية بشواهد تلك الحضارة فهي تبدو متأخرة ويرجعها ل. بالو إلى العصر الحجري الحديث (Camps G., 1961, pp.76-77).

النّمط المعيشي والتنظيم الاجتماعي:

إنّ علم آثار فجر التاريخ بالمغرب لا يتوفّر إلاّ على مصدر معرفة واحد يتمثل في الحفريات التي خصّت المباني الجنائزية، وكلّ الاستدلالات القائمة على أساس نتائج هذه الحفريات ضعيفة سواء في ما يتعلّق بالمبنى، أو الأثاث الجنائزي، أو الطقوس التي تعكس حياة تلك المجتمعات، فالطقوس الجنائزية تتغير ببطئ مع تطور مجتمع ما، وعلى هذا الأساس تقدم خصائص عتيقة لا ينبغي الاستهانة بقيمتها.

مع الأسف إنّ مسكن فجر التاريخ غير معروف وحتى الأثار التي نسبت إلى البربر القدامى لم تؤرخ بدقة، وما سماه ق. كامبس وكثيرون قبله (Berthier A., 1951, p. 98). بـ «الاستمرارية البربرية» يفسّر لنا أن أبسط التقنيات التي تناسب المجتمعات الريفية البسيطة لم تتطور بطريقة معتبرة خلال عدة قرون (Camps G., 1960, pp.37-44)، فلم تقدم لنا حفريات المساكن الفجر تاريخية سوى نتائج ضعيفة وهذا راجع إلى ندرة الحفريات المجرات بالمناطق الأهلة منذ الفترات البونية أو قبلها، بسبب قلة المساكن ممّا جعل علم آثار فجر التاريخ يبحث عن النّمط المعيشي للبربر القدامى من خلال المقابر.

- الفخار الجنائزي:

قدم لنا الفخار الجنائزي معلومات عن النمط المعيشي لمجتمعات فجر التاريخ، حتى وإن لم يتغير تقنيا فشكل الفخار يتعلق باستعماله، قديما كان أم معاصرا وهذه الخاصية ضرورية لإعادة بناء النمط

المعيشي، لأن الفخار البربري احتفظ بالوحدة عبر كل الأزمنة حتى أنه من المستحيل التمييز بين شقوف إناء صنع في العصور القديمة من إناء صنع قبل قرن فقط.

يرى ق.كامبس (1960) أنّ الفخار المقولب المستخرج من المباني الجنائزية له وظائف مختلفة حتى وإن كان كله تقريبا عبارة عن أواني صنعت لتوضع في المدافن، ويشمل الفخار الجنائزي مجموعتين:

الفخار الصغير والأواني الطقوسية ذات المغزى الإعتقادي، الذي سمحت دراسته بالتعرف على الأشكال التي تشبه الأواني المنزلية (Camps G., 1960, p.101).

- أشكال الفخار:

الأشكال الأكثر انتشارا هي الأقداح (Bols) التي يتميّز فيها نوع انسيابي الشكل سمي القصعة ونوع أعمق سمي القدح، وهي الأواني الأساسية التي تستعمل للغذاء السائل يتمّ تناوله مباشرة بمسك القصعة أو حساء يتناول بقطعة رغيف أم بملعقة من الخشب ولا تزال القصاع والأقداح تُكون الوحدة الأساسية للأواني الريفية.

أما في ما يتعلق بتناول الأطعمة الصلبة فيأخّذ الفخار المغاربي شكلان من الصحون، الأول جدّ مجوّف مخروطي الشكل ويتميّز عن إناء الشرب باتّساع فوهته أكثر، والثاني مسطح ذو حواف اقل اتّساعا.

وجد هذان الشكلان بمدافن فجر التاريخ مع الإشارة إلى أنّ الشكل الأول أقلّ انتشارا من الثاني الذي تعرفنا عليه خاصة من خلال مجموعة فخار موقع "قاستل" (تبسة)، البعض منها مزود بقدم قصير اختفى من الصحون في يومنا هذا، هذه الصحون التي لا توضع فوق النار و تتميز حاليا بزخرفة متنوعة نلاحظها أيضا في الصحون القديمة ولكنها أبسط وتخضع إلى نفس القواعد الجمالية.

لقد بينت دراسة ق. كامبس (1961) أشكال أخرى ذات فتحة واسعة يتميز فيها نوع آخر من الصحون الخاصة بمقبرة قاستل المؤرخة بالعهد الليبي–البوني والتي قدمت لنا حوالي 350 إناء. ومن الستين (60) مقبرة التي تم جرد أثاثها الجنائزي وجد أن 44 منها لم تقدم سوى 10 فخاريات وهي كبيرة المقاسات بالمقارنة مع الفخاريات الجنائزية الأخرى وتحمل في قاعها الداخلي سرة حلقية تجهل وظيفتها، ومن بين الفرضيات المقدمة بخصوص وظائف هذه الصحون من الأرجح أنها صحون للطبخ (طاجين)، كما تستعمل اليوم لطهي الخبز أو الرغيف. وما يؤكّد هذا الرّأي هو انعدام أيّة زخرفة بها وهذه خاصية تميز عادة الأواني المستعملة للطبخ (Camps G.1961, pp. 299-301).

إنّ عددا كبيرا من الفخاريات المقولبة المكتشفة بالمباني الجنائزية ساهمت في إعادة تصور الأعمال اليومية للشعوب القديمة التي لا تختلف كثيرا عن عادات سكان المناطق الجبلية البربرية الذين حافظوا حتى اليوم على العادات المتوسطية القديمة (Camps G., 1960, p. 107).

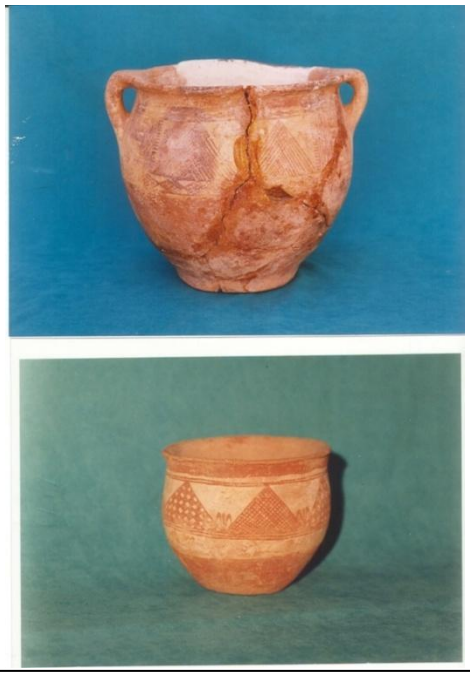

الفخار الجنائزي
فخاريات مقبرة تديس. مرحلة فجر التاريخ

- الحلي:

استعمل البربر القدامى الحلي المعدنية (الأساور، الخواتم، القلادات، الحلقات ...)، إذ وجدت في المباني الجنائزية خرز من حجارة نصف كريمة (خاصة العقيق الأحمر) أو من الزجاج. وعرفت عناصر القلادة المصنوعة من قشور بيض النعام مند الحضارة القفصية إلى العصر الحجري الحديث، وتواصل استعمالها في العصور القديمة.

وتشكّل الأساور وحلقات القدم (الرجل) أهمّ مجموعة في الأدوات المعدنية التي عثر عليها بالمدافن، أما الخواتم المكتشفة في المقابر الفجر تاريخية المغربية فهي نادرة، بينما الحلقات وأقراط الأذن فهي أكثر انتشارا ومختلفة الأشكال، أبسطها عبارة عن حلقة دائرية مفتوحة أو بيضاوية الشكل أحد طرفيها ظاهر حتى يدخل في فص الأذن، والحلقات البيضاوية أصغر من المستديرة وأكثر انفتاحا، كما تمّ العثور على حلى أخرى مثل جواهر الأقراط المصنوعة بخيوط برونزية والإبزيمات وحلقات الحزام (Camps G., 1961, pp.423-432).

حلي من البرونز: 6 أقراط وحلقة الأنف وقرص وخاتم ذو فص
مقبرة فجر التاريخ بكاف لخضر–آشير المدية

– الثياب:

إنّ بقايا الثياب المكتشفة بالجثى نادرة جدا، عثر على عينات تعود للمنطقة الجنوبية بالمغرب (الصحراء) أو القبور البونيقية في منطقة سميرات (Gobert G. et Cintas J., 1941, pp. 83-121)، ولدينا على سبيل المثال قطعة نسيج وجدت داخل جثوة بموقع نقرين بتبسة (Battistini E., 1936-1937, pp. 83-121).

وقد لاحظ ق. كامبس أنّ الدراسات التي أجريت على هذه الأنسجة تمثّل تقنيات مستعملة حاليا في المغرب، إذ يشير إلى تناوب الأشرطة الملونة بسميرات وتشابهها بالأقمشة الشائعة حاليا والقمصان ذات الأشرطة الواسعة التي كان يرتديها الموريون تحت جلود الحيوانات حسب سترابون.

أمّا الأبازيم فهي نادرة بمدافن فجر التاريخ عكس حلقات الأحزمة التي نجدها بكثرة، ونظنّ أنّ الرداء المألوف للبربر القدامى كان عبارة عن قطعة قماش مستطيلة تلف حول الجسم أو مخيطة على كتف واحد ومشدود بحزام في الخصر، ويظهر الحكام الليبيون على الرسوم الجدارية المصرية دائما بكتف عاري ومنهم من يرتدي تنورة تحت المعطف أو حزام بسيط، أما الأقمشة فهي مزخرفة بعناصر متنوعة، وتختلف عن تلك التي عرفها المصريون، ويبدو الحاكم الليبي دائما بريش النعام مشدودة في شعره. أمّا النقوش الصخرية في الصحراء فتصور لنا نوع من القمصان الجلدية ذات خملات تتسع في شكل جرس كان يرتديها رعاة الأحصنة (القارامانت) (Camps G., 196, p.108).

القرابين الجنائزية:

أعطت بعض القبور بقايا عضوية (عظام حيوانات، حبوب) وعادة ما وجدت مرافقة للعظام التي دفنت بطرق مختلفة، وهذه الآثار صنفت من طرف العلماء ضمن الممارسات والشعائر الدينية التي توحي بنشاط اعتقادي في شكل قرابين مقدمة إلى ذات روحي أو لها علاقة بما بعد الموت.

– القرابين الحيوانية :

لقد كشف محتوى المدافن المتمثل في بقايا القرابين الجنائزية، ومنها المتكونة من عظام الحيوانات، أن شعوب فجر التاريخ كانت لها عادات إعتقادية–جنائزية. ومن بين الحيوانات المدجنة يبقى الثور أحسن القرابين، إذ وجدت عظامه في 13 منطقة مختلفة، وينتمي هّذا الحيوان إلى سلالة محلية "بوس إبيريكوس" حاضرة في المواقع ما قبل تاريخية، ويوضّح انتشار عظام وأسنان الثور في مدافن فجر التاريخ ما هو إلا دليل على وجود عادات غذائية مختلفة عن العادات الحالية (Camps G., 1961, p.508).

لقد تمّ العثور على بقايا الحصان في القبور، وهنا نتساءل هل كانت هذه البقايا لقرابين فقط أم غذائية كذلك، علما أنّه لا توجد نصوص قديمة تذكر أن الأفارقة كانوا يأكلون لحم الحصان (Camps G.1960, p.115) ولكن نلاحظ إنتشار وجود عظام الحصان بدولمان منطقة قسنطينة وخاصة بمقبرة رأس عين بومزروق، إذ منذ الحفريات التي قام بها ب. فيرو، بهذه المقبرة، عرفنا الكثير عن وجود بقايا الحصان في مقابر الدولمان، ويظهر أن رأس الحصان كان يمثل أهم قسم من القربان. ويرجع ق. كامبس هذه الممارسات إلى اعتقادات شعوب الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ولأهميته هذا الحيوان نجده ممثل على ظهر العملة القرطاجية والنوميدية (Camps G.,1961, pp.509-512). عكس الثور أو الحصان تأتي التضحية بالخروف نادرة، وأقلّ انتشارا وتقريبا غير معروفة بالمغرب.

تمّ العثور على بقايا الإبل في قبر بعين الحمارة من طرف الدكتور ب. روفو (Roffo P., 1938, p.225) حيث وجد بحثوة ذات الدفن الثانوي فك سفلي، وعظم من أصابع القائمة ومشط لعظام الإبل مختلطة بعظام الميت.

وجدت عظام العصافير بالمدافن في ثلاثة عشر موقع كما رسمت العصافير مرارا بالفخاريات الطقوسية لمقبرة تديس وفي صحن من مقبرة قاستل. ومن الصعب إعطاء معنى لمثل هذه القرابين.

بينما يبقى بعض الشك عندما يتعلق الأمر بعظام الأرانب مثل تلك التي اكتشفها ك. بوتي بأربع جثى في منطقة عين الصفراء. التي يحتمل تفسيرها بأنها قرابين. وببازينا في الدوسن وجد أ. روتول عظام 12 أرنب موضوعة على شكل إكليل حول هيكل امرأة مدفونة في وضعية إنكماش.

يشار أحيانا إلى عظام القوارض الصغيرة ببعض المدافن إلى جانب عظام الضفادع. وليس هناك شك في أنّ مثل هاته البقايا دخيلة ليس لها أي معنى طقوسي، وهو نفس الوضع بالنسبة لهياكل وبعض عظام الكلب المكتشفة ببعض القبور فمن المحتمل أن تكون قد رميت هناك بعد فترة طويلة من الدفن.

نعرف الدور الذي لعبه الحلزون في غذاء المجتمعات القفصية والعصر الحجري الحديث بالمغرب، فمن الطبيعي أن يعثر في حفرية دولمان على كمية هائلة من قواقع الحلزون. ولقد حذر س. قزال من الافتراضات التي تأتي بنتيجة بوجود هذه القواقع بالطبقات العليا للملء أو تحث بلاطات غطاء المدفن. وهذه الملاحظات لا تسمح لنا بالجزم أنه في مرحلة الدولمان كان الأفارقة يضعون عمدا الحلزون بمدافنهم ليكون وجبة غذاء لموتاهم (Camp G., 1961, pp. 508-514).

– القرابين الغذائية:

باستثناء القرابين الحيوانية التي بقت عظامها في حالة حفظ، تبقى معرفتنا حول القرابين الغذائية التي من المحتمل أن تكون قد وضعت بالمدافن محدودة جدا.

إنّ وجود بيض النعام في القبور الميغاليتية والجثى،، أمر أكيد وإن كان نادرٌ، فقد وجدت بقايا قشور بيض النعام بحويطة في عين الباي، وبجثى مغنية، ووجدة، وبني ونيف، وقاستل. وهنا يرى س. قزال، أنّ هذه البقايا لا يمكن أن تعبّر عن قرابين غذائية بأتم معنى الكلمة (Gsell St., 1929, p.145)، ويربط علاقة بين الأواني الفخارية البيضاوية الشّكل ذات الطابع الطقوسي وبين بيض النعام. حيث يستخلص أنّه ليس من المستحيل حسبه، أن تكون مثل هذه الفخاريات قد أخذت مكان بيض النعام (الناذرة والثمينة) في مقبرة قاستل. ولكن وجود بيض النعام بالقبور المصرية والميزوبوتامية، الكريتية والفينيقية لها دلالة طقوسية مرتبطة بالمعتقد، وفي النهاية يطرح مشكل الدور الذي كانت تؤديه في الممارسات الجنائزية او الرمزية التي يراد من خلال وضع بيض النعام في المدافن الميغاليتية. ويرى معظم الباحثين في استعمال بيض النعام رمز العودة إلى الحياة أو على الأقل الاحتفاظ بالحياة (Camps G.,1961,p.289)، فالعصفور والبيضة صورت في القديم وهي تمثل بقايا عنصر حيوي أساسي يرمز إلى ما بعد الموت. وتكون الأواني ذات الإبزيم ربما احتوت أطعمة سائلة وخاصة الحليب. والبعض يرى أن هذه الأواني ذات المصفاة خصصت للبن. نفس الغذاء كان يسكب في تلك الفخاريات الصغيرة ذات الغطاء الأحمر الموضوعة في القبور البونية للساحل والتي لا تزال تحتفظ بحبيبات في قاعدتها.

أمّا القرابين النباتية التي يمكن أن تكون قد وضعت بالفخاريات الجنائزية فلم يبقى منها شيء. إن بقايا الفواكه نادرة جدّا، باستثناء أنوية المشمش التي عثر عليها بجثوة تازارين (جنوب المغرب الأقصى)، ولم يعثر على أية بقايا لفواكه أخرى بالمدافن العديدة المدروسة.

وقد وجدت بسميرات فخاريات تحمل آثار لبصمات حبات العنب وبذور القمح وهذه علامات لا يمكن أن تكون علامة الملكية الفخارية، بل الأرجح أن تؤول إلى قرابين غذائية (Camps G.,1961,pp.515-516).

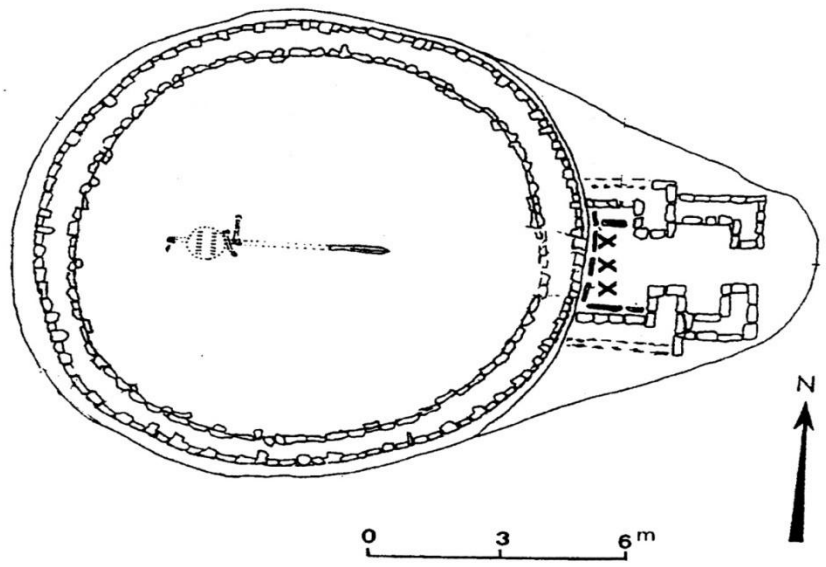

جثوة يتقدمها مدبح (القرابين)، علامة x تشير إلى أماكن التي وضعت فيها النصب الحجرية موقع الحفرة بقسنطينة.

– العربة عنصر إجتماعي – إقتصادي عند البربر القدامى:

لقد طرح مشاهد العربات على الصخور مشكل وجودها في المغرب. فهل حقا استعملت العربة من طرف المجتمعات الصّحراوية أم مثلت صدفة فقط؟ لأنّهم ربما رأوها في مناطق أخرى من الحضارات المجاورة الأخرى.

لقد تطرّق عدد من الدّارسين إلى القضية دون دراستها بدقة. ونسبت مثل هذه المنجزات إلى محاربين عادوا من المقاطعات المصرية، وبالتّالي تكون هذه التمثيلات مجرّد تقليد. في الحقيقة نفس المشكل قد طرح بالنسبة لكل النقوش الصحراوية التي تمثل حيوانات انقرضت اليوم، ولكن لا أحد يساند هذا الرأي الضعيف.

فلا مجال للشّك اليوم بعد الاكتشافات المتعددة لتمثيلات العربات بالصحراء الغربية والوسطى فكل هذه التمثيلات لا يمكن أن تعتبر تظاهرات تجسيدية متفرقة لأشخاص مثلوا موضوع شاهدوه في مناطق أخرى بل هي دليل على أن العربة كانت شائعة الاستعمال لدى المجتمعات المغربية منذ مرحلة فجر التاريخ، كما لعبت دور ثقافي ذو أهمية بالغة اقتصاديا (Lhote H., 1953, p. 1158).

لقد بين جرد مواقع الفن الجداري في المغرب ثلاثة نطاقات جغرافية هامة تميزت باستعمال العربة هي الصحراء الغربية والوسطى، والجنوب الوهراني، وجنوب المغرب. لكن يجهل تاريخ النقوش والرسومات التي تمثل العربات باستثناء بعض منها المؤرخ بحوالي 1200ق.م وهو تاريخ هجوم الليبيين على المصريين (Lhote H., 1982, pp. 117-118).

فإذا اعتبرنا 1200 ق.م. هذا التاريخ في صميم الفترات التاريخية للمغرب تصبح العربات متأخرة عن مرحلة فجر التاريخ (بحدود 2000 – 2500 سنة ق.م) التي تّشكل فيها المجتمع اللّيبي– البربري.

وهكذا خلفت لنا النقوش والرّسوم الجدارية التي تمثل العربات مشهد حضاري وثقافي خاص بالمجتمعات ما بعد العصر الحجري الحديث أي نحن في مرحلة"فجر تاريخية" ويُعبر هذا الاختراع للإنسان المغربي عن درجة تطوره الثقافي والتقني.

لقد استعملت العربات كوسيلة للتنقل ولحمل الأثقال في حالة جرها من طرف الثّيران أو الأحصنة، وكأداة للصيد وللحرب، هذا ما يمكن أن نستخلصه من خلال الرسومات والكتابات التاريخية القديمة.

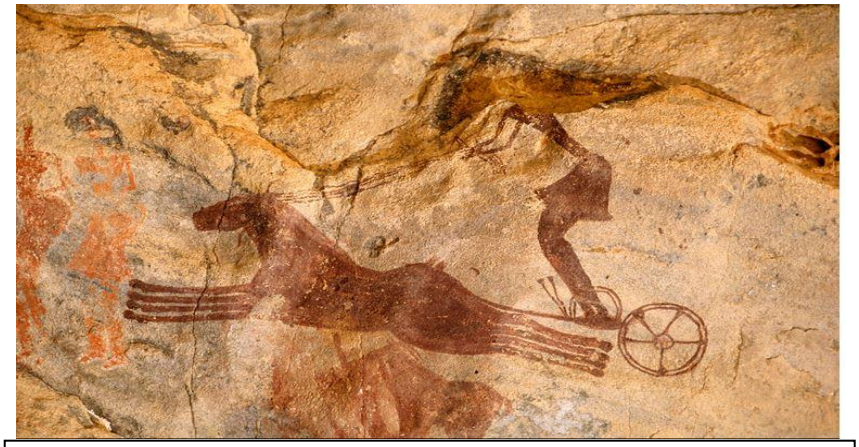

عربة يجرها أحصنة بطاسلي أزجر تعود إلى ألف سنة قبل الميلاد.

الحصان عند البربر القدامى:

يحتل الحصان مكانة هامة في حياة البربر القدامى ويتطابق ظهوره على النقوش الصخرية عصر فجر التاريخ. وأقدم الوثائق المتعلقة بالحصان عبارة عن تمثيلات لعربات حربية يجرها ثلاثة أو أربعة أحصنة، فالحصان ظهر في الصحراء مع ظهور العربة الحربية، إذ نلاحظ في مرحلة الأحصنة في الفن الصخري أنّ الأحصنة المنعزلة نادرة في المشاهد العربات، بينما تنتشر فيما بعد (Lhote H.1953,pp.1138-1139) في الصحراء الوسطى والأطلس الصحراوي بأعداد كبيرة. وهذا ما يأكده تصنيف الفن الصخري على أساس ظهور تمثيلات الحيوانات: الثور العتيق (Bubalin)، الحصان (Cabalin)، الجمل (Camelin) المرتبطة بإطار وتسلسل كرونولوجي، كل هذه الحيوانات توافق مرحلة زمنية معينة.

فترة الأحصنة (الحصانيات) (Période Capaline) حسب لوط.ج (1976) تبدأ حوالي 1200 ق.م مع ظهور العربات، بينما ف. موري (1978)، يؤخر هذه المرحلة إلى أكثر من 1200 حتى حدود 1500 ق.م. ويطلق بعض الباحثين عليها مصطلح "عصر القارامانت" المتميّز بنمط شبه هندسي. ونلاحظ خلال هذه المرحلة ظهور مشاهد لأشخاص منفردين أم ثنائيين مسلحين بالرماح، مع أحصنة مربوطة

لعربات تمثل في حالة "جري طائر"، عموما يضع الباحثون هذه المرحلة (مرحلة الفرسان) في حدود نهاية الألف الثانية وبداية الأولى (Muzzoulini A.,1986, pp.60-71).

نستخلص ممّا سبق أنّه من الواضح حسب المعطيات الأثرية، أنّ إنسان فجر التاريخ المغربي أو اللوبيين الأوائل، ترك معالم وبقايا جعلته يتميز ثقافيا وحضاريا عن باقي شعوب البحر البيض المتوسط خاصة والعالم بشكل عاما. وانطلاقا ممّا تطرّقنا إليه من بقايا ومخلفات أثرية، يظهر جليا أن فجر التاريخ المغربي كان يزخر بحياة متنوعة تشهد على نمط معيشي يميزه الاستقرار والتنوع في النشاط الاجتماعي والاقتصادي، حتى ولو نجهل الكثير عن شكل المسكن أو التجمعات السكانية لهذه المرحلة الانتقالية بين ما قبل التاريخ وفجره، و لكن يظهر واضحا قد تبلورت في تلك المرحلة الأسس الثقافية والحضارية الليبية (البربرية) التي سمحت لهذه الشعوب الولوج في مرحلة جديدة تاريخية عرفت بعصر الممالك القديمة. إلى جانب هذا شاهد إنسان فجر التاريخ ممارسات في المعتقد الديني، التي لاحظناها ضمن الطقوس الجنائزية والمتمثّلة في تقديم النذر أو القاربين. فهذه المعالم الثقافية والحضارية التي رسخت في الذاكرة الجماعية تبيّن أنّ الإنسان الليبي–البربري لعب دورا مميزا في تطور الحياة وتنوّعها سواء على الصعيد القارة الإفريقية أو على صعيد حوض البحر الأبيض المتوسط.

البيبليوغرافيا:

1. Balout (L),1955.-**Préhistoire de l'Afrique du Nord**. Ed. A.M.G.,Paris.
2. Battistini (E.), 1936-1937. – Note sur deux tumuli de la région de Négrine. **Rec. de la Soc. de Préhist. et d'Archéol. de Tébessa**, T. I.
3. Berthier (A.), 1951. – **L'Algérie et son passé**. Paris.
4. Camps (G), 1960 . - Aux origines de la berbérie. Massinisa ou le début de l'histoire, **Libica, Archéo. Epigr**. t VII, Alger.
5. Camps (G), 1961 . – **Aux origines de la berbérie. Monuments et rites funéraires protohistoriques**. Ed. A.M.G, Paris.
6. Camps, (G.), 1974. –Réflexions sur l'origine protohistorique des cités en Afrique du Nord. L.A.P.M.O.
7. Camps-Fabrer (H.), 1968 .- Un gisement du capsien supérieur. L'escargotière de Medjez II (El-Eulma), département de Sétif, Algérie**. L'Anthropologie** t. 72, n° 5-6.
8. Chamla (M.C), 1968 . - les populations anciennes du Sahara et des régions limitrophes. **Mémoire du CRAPE**, n° IX, Ed. A.M.G. Paris.
9. De Bayle des Hermens (R.) et Calvet (R.), 1966. – Le site Mécherasfa sur la Haute Mina, éperon barré et nécropoles. **Libyca Anthropologie**, t. XIV.
10. Debrug (A.), 1930-1931. – Atlas préhistorique ou essai de chronologie sur les diverses industries préhistoriques recueillies dans mes recherches et fouilles en Algerie. **Rec des Not. et Mém. de la Soc. Archéol. de Constantine**, t. LX, .
11. Desanges (J), 1980 . - **Histoire générale de l'Afrique, II Afrique ancienne. Les Protoberbères**, Ed. UNESCO, Paris.
12. Doumergue (F.), 1927. – La grotte du Polygone. **Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran**, t. XLVII.
13. Gobert (E.G.), 1937. – Les escargotières le mot de la chose**. Rev. Afr**., t. LXXXI.
14. Gobert (G.), et Cintas, 1941. – Smirat. **Rev. Tunis**. pp. 83-121.
15. Gsell (St.), 1901. – **Les Monuments antiques de l'Algérie**, t.I, Paris.
16. Gsell (St.), 1915. - **Hérodote. Textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du Nord**.
17. Gsell (St.), 1929. – **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord**, t. VI, Ed. Hachette, Paris.
18. Gsell (St.). 1921. – **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord**, t. I , Paris.
19. Lhote (H.), 1953. – Le cheval et le chameau dans les peintures et gravures rupestres du Sahara. **Bull. de l'I.F.A.N**., t. XV, n°3.
20. Lhote (H.), 1982. – **Les chars rupestres Sahariens des Syrtes au Niger par le pays des Garamantes et des Atlantes**. Ed. Hespérides, France.
21. Malhomme (J.), 1953. – Les représentations anthropomorphes du Grand Atlas (Maroc). **Libyca, Anthrop**. T. I.

22. Marcy (G.), 1942. – Remarque sur l'habitation berbère dans l'antiquité. – A propos des Mapalia. **Hespéris**, Rabat, t. XXIX.
23. Moret (A), 1936 – **Histoire de l'Orient**, t.I, Ed. P.U.F, Paris.
24. Muzzolini (A.), 1986. – **L'art rupestre préhistorique des massifs centraux sahariens**. Ed. Great Britain. England.
25. Roffo (P.), 1938 . – Sépultures indigènes antéislamiques en pierres sèches, étude sur trois nécropoles de l'Algérie centrale. **Rev. Afr**.
26. Thouvenot (R.) et Vicaire (M.), 1938. – Vestiges Archéologiques dans la région de Fez el-Bâli. **Hesperis**, t. XXV.